«العقل والإيمان»

مقدّمة عامّة في قراءة
رسالة البابا يوحنّا بولس الثاني
الصادرة في ١٤ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨

الخوري خليل شلفون*

هذه الرسالة في علاقة العقل بالإيمان وجّهها قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكيّة وبدأها بالكلمات التالية: «أيّها الأخوة المحترمون في الأسقفيّة: تحيّة وبركة».

لئن كانت الكنيسة الكاثوليكيّة قد شعرت بضرورة التأمّل في الحقيقة مجدّدًا، فمن الطبيعي أن يتوجّه البابا في بادئ الأمر إلى الذين يشاركونه مهمّة تبيان الحقيقة. غير أنّه لا يكتفي بمخاطبة الأساقفة وحدهم (فقرة ٦)، بل يتوجّه أيضًا إلى اللاهوتيّين طالبًا إليهم أن يهتمّوا كلّ الاهتمام بمسالك الفلسفة وبُعد الحقيقة الفلسفيّ (فقرة ١٠٥). وهو يتمنّى أن يدخل اللاهوتيّون في حوار ناقد في ما بينهم، ويفرضوا التمييز بين الفكر الفلسفيّ المعاصر والتقليد الفلسفيّ (فقرة ١٠٥). كما عليهم أن يبنوا بعد الحقيقة الماورائيّ، وأن ينقدوا ويرفضوا عقليًّا ومنهجيًّا كلّ ما يعتري هذه الحقيقة

(*) أستاذ علم اللاهوت في المعهد العالي للعلوم الدينيّة، جامعة القدّيس يوسف، بيروت.

واكتشافها: كالعدميّة، والإلحاد، والماديّة، والعلمانيّة، والفلسفة البنائيّة والوجوديّة.

ويتوجّه البابا أيضًا إلى الفلاسفة (فقرة ١٠٦) وإلى الذين يدرّسون الفلسفة متمنّيًا عليهم، مع احترامه إطارَ علومهم، أن يبقى سعيهم دائمًا إلى الحقيقة والخير الذي تحمله هذه الحقيقة (فقرة ١٠٦).

ويتوجّه البابا كذلك إلى الذين يحملون مسؤوليّة التثقيف الكهنوتيّ (فقرة ١٠٥) متمنّيًا عليهم أن يؤمّنوا الثقافة الفلسفيّة لتلاميذهم، وبخاصّة لأولئك الذين سينصرفون كلّيًا إلى تدريس اللاهوت والقيام بالأبحاث.

ولا ينسى البابا رجال العلم. فهو يدعوهم إلى أن يجمعوا بين التقدّم العلميّ - التكنولوجيّ والقِيَم الفلسفيّة - الأخلاقيّة، وهي ما يميّز الكائن البشريّ. (فقرة ١٠٥).

ويطلب البابا إلى جميع الذين يرغبون في قراءة الرسالة هذه أن يأخذوا بعين الاعتبار الإنسان في أعماقه، وبصورة خاصّة سعيَه الدائم إلى الحقيقة ومعنى الوجود.

لذلك يرفض قداسته بعض النظم الفلسفيّة العائدة إلى جيل ما بعد الحداثة كالمذهب الانتقائيّ (فقرة ٨٦)، والتاريخانيّ (فقرة ٨٧)، وشبه العلميّ (فقرة ٨٨)، والنفعيّ (فقرة ٨٩)، والعدميّ (فقرة ٩٠)، لأنّها دفعت الإنسان المعاصر إلى الاعتقاد أنّه يستطيع وحده وبقواه الذاتيّة أن يقرّر مصيره بدون أن يتّكل على غيره. ويعتقد البابا أنّ كمال الإنسان يتحقّق عندما يقرّر الدخول في الحقيقة. وفي هذا الإطار يمكنه الوصول إلى ذروة كماله عندما يدعو إلى المحبّة وإلى معرفة الله. ونذكر هنا أنّ يوحنّا بولس الثاني قدّم لنيل الدكتوراه أطروحةً عن القدّيس يوحنّا الصليبيّ العامَ ١٩٤٨، وقدّم ثانيةً في فلسفة ماكس شيلر الشخصانيّة، العام ١٩٥٢.

وإذا تصفّحنا الرسالة تصفّحًا سريعًا نجد أنّها تتألّف من سبعة فصول ومقدّمة وخاتمة.

ففي المقدّمة ينطلق البابا من الحكمة التي كانت محفورة على عتبة معبد دلف «إعرف نفسك» (فقرة ١).

وعندما يستعرض معظم الديانات في العالم يكتشف أنّ التفتيش عن معنى الأشياء موجود دائمًا في قلب الإنسان، وأنّ الفلسفة وهي علم «الحكمة»، اضطلعت بدور مهمّ في معرفة الحقائق الأساسيّة المتعلّقة بوجود الإنسان (فقرة ٥). ويتمنّى البابا يوحنّا بولس الثاني، بعد البابا ليون الثالث عشر والبابا بيّوس الثاني عشر، العودة إلى حقيقة الإنسان الأساسيّة التي حجبتها الفلسفة الحديثة. فلقد ركّزت تلك الفلسفة، في الواقع، على الإنسان، وعلى قدراته لمعرفة الحقيقة، وعلى حدود القدرات هذه ودوافعها، ونسيت حقيقة الكائن. ثمّ ينتقد كلّ ما ينتج من هذا النسيان: اللاإراديّة والنسبيّة والتعدّديّة غير المتنظمة والتشكيك. فمن واجب الفلسفة إذًا استعادة رسالتها الأصليّة.

الفصل الأوّل، (فقرة ٧ إلى ١٥): يعود البابا في الفصل الأوّل، وعنوانه بشارة الحكمة الإلهيّة، فيركّز خطابه على البشارة التي هي نطقة انطلاق تأمّلاته وجميع التأمّلات المسيحيّة. وفي ضوء سرّ المسيح يتبلور سرّ الإنسان حيث تظهر حقيقة البشارة عملًا مجّانيًا أهدي إليه. وتقضي البشارة قبولها تعبيرًا عن محبّة، وهي تولّد التأمّل (فقرة ١٥). إنّها استباق، في التاريخ، لرؤية الله الأخيرة والنهائيّة.

الفصل الثاني، (فقرة ١٦ إلى ٢٣): نقطة الانطلاق في الفصل الثاني هي من العهد القديم، ومن التناغم التامّ بين العقل والإيمان. غير أنّ حدثَ موت السيّد المسيح وقيامته يقيم فاصلًا بين الاثنين. وعلى العكس من ذلك يمكن لهذا الحدث الخاصّ أن يعطي العقلَ الجوابَ الذي ينتش عنه.

الفصل الثالث، (فقرة ٢٤ إلى ٣٥): إذا كانت لدى كلّ إنسان الرغبة في التفتيش عن الحقيقة وهو يعيش علاقات طبيعيّة مبنيّة على الإيمان، فإنّ الفصل الثالث يقترح على كلّ واحد أن يتعرّف في المسيح حقيقةَ

وجوده ومعناه.

الفصل الرابع، (فقرة ٣٦ إلى ٤٨): إنّ لقاء العقل والإيمان، أو الحوار بين اللاهوت والفلسفة، هو عمل آباء الكنيسة الذين يذكر البابا منهم: هيرونيمُس وطرطليانُس وأوريجانيس ويوستينيانُس وإقليمنضُس الإسكندريّ، وبصورة خاصّة القدّيس أوغسطينس الذي أقام الحصيلة الشاملة وأعطانا أساسًا صلبًا لرؤية الكائن المتسامي والمطلق.

ويذهب القدّيس أنسلمس إلى أبعد ممّا وصلت إليه المذاهب اللاهوتيّة الغربيّة. فهو يقول: إنّ العقل يقبل ما يقدّمه الإيمان كأمر ضروريّ (فقرة ٤٢). ويذهب القدّيس توما الأكوينيّ، رسول الحقيقة، إلى أبعد من ذلك في إطار التناغم بين العقل والإيمان، وذلك باستنباطه فلسفة الكائن لا مظهريّته. غير أنّ حركةً معاكسة حصلت عندما جرى التمييز، في القرون الوسطى، بين نوعَيْ المعرفة. لقد تمّ الانفصال البشع على نحو متصاعد؛ ووصل عند بعضهم، في القرن الماضي، إلى حدّ التناقض البارز في مذهب الإنسانيّة الملحدة، والمذهب الوضعيّ، والمذهب العدميّ، والماديّة الملحدة. وزاد هذا التناقض في إضعاف الإيمان الذي يشدّد على العاطفة والتجربة، وإضعاف العقل الذي لم ينتَشِ عن جذور الكائن.

إنّ الرسالة البابويّة نداءٌ لكي يعودَ الإيمان والفلسفة إلى وحدتهما العميقة التي تجعلهما قادرين على أن يكونا في تناغم، مع احتفاظ كلّ منهما بحقل عمله الخاصّ. يجب أن تقترن جرأة العقل بدالّة الإيمان وحرّيّته في التعبير (Parrhésia).

الفصل الخامس، (فقرة ٤٩ إلى ٦٤): يؤكّد البابا في الفصل هذا دورَ الكنيسة المعلّمة التي حالت دون ارتكاب الأخطاء، ودون انحرافات العقائد الفلسفيّة. وهو يقترح تجديد الدراسات الأكوينيّة، ولا سيّما أنّه قد برزت في الماضي أهمّيّة الدراسات هذه وخصوبتها في ما يتعلّق باللاهوت والفلسفة عند نيومَن ورُوسميني وماريتان وجِيلسُون وشتاين وسُولُوفييف

وفلُورنْسكي ولُوسْكِي. والمجمع الفاتيكانيّ الثاني نفسه لم يذهب إلى أبعد من تأكيد أهمّيّة تناغم جديد بين العقل والإيمان بعيدًا عن كلّ جنوح عقليّ وتزمّت دينيّ. ويشدّد البابا على أهمّيّة الثقافة الفلسفيّة في تدريس اللاهوت (فقرة ٦٢)، وعلى الرابط الذي يجمع بين العمل اللاهوتيّ والتفتيش الفلسفيّ عن الحقيقة.

الفصل السادس، (فقرة ٦٤ إلى ٧٩): يجب أن يكون علم اللاهوت، الذي هو علم الإيمان، عارفًا بالنظم الفلسفيّة المختلفة. كما يجب أن يكون قادرًا على أن يعرض، بطريقة منهجيّة وعلميّة، تعليم الكنيسة، عن طريق إعادة صياغته بروح ناقدة تستطيع إيصاله إلى الجميع.

وفي الفقرة (٧٣) يقترح البابا عقد حلقة تأويليّة لمعالجة تفسير كلمة الله التي هي الحقيقة. وتكون الغاية منها فهم كلمة الله فهمًا واضحًا عقليًّا. ساعتذاك يتّخذ التأمّل في حكمة الله بعدًا أفضل عن طريق العودة الدائمة إليها، وهكذا يكتشف العقل آفاقًا جديدة وغير متوقّعة. ويستشهد البابا هنا بكلام القدّيس أوغسطينس: «مَن يؤمن يفكّر، وعندما يؤمن يفكّر، وعندما يفكّر يؤمن» (فقرة ٧٩).

الفصل السابع، (فقرة ٨٠ إلى ٩٩): يتحدّث الفصل السابع بما يطلب إلى الفلسفة واللاهوت. يجب أن تخرج الفلسفة من إطار اللامعنى وتكفّ عن تعليم الموقّت والعابر واليائس. ويدعو البابا الفلسفة إلى أن تجد لها فكرًا ماورائيًّا جديدًا بالتفتيش عن معنى الوجود والحقيقة (فقرة ٨٥).

ويوضح قداسته في القسم الأخير (فقرة ٩٢ إلى ٩٩) من هذا الفصل المهمّات الراهنة التي تنتظر علم اللاهوت:

١ - إدراك معنى الوحي أو الكشف الإلهيّ، وفهم معنى البشارة.
٢ - التأمّل في أبعاد الحبّ الإلهيّ والتبحّر فيه.
٣ - إستخراج معنى التاريخ الخلاصيّ.
٤ - تخطّي تاريخ الحتميّات والسمّو إلى الماورائيّات.

٥ - تأويل المصادر تأويلًا واقعيًا صريحًا.

٦ - أهمّيّة النظرة إلى الكائن المطلق نظرة فلسفيّة تعالج الواقع في بنيته الأنطولوجيّة والسببيّة والعلائقيّة، بغية الوصول إلى ما يوجّه كلّ شيء إلى كماله الذاتيّ.

٧ - أهمّيّة الموقع الماورائيّ لدى الكائن المطلق، وأهمّيّة العودة إلى أدبيّات فلسفيّة بعيدة عن الذاتيّة والنفعيّة، والكشف عن حقيقة المحبّة التي تعطي بدون أن تطلب شيئًا بالمقابل.

٨ - أخيرًا يأخذ بالاعتبار عملَ الكنيسة اللاهوتيّ في سبيل البشارة التعليميّة المسيحيّة التي تنقل سرّ الإله الحيّ.

وعلى هذا يمكن الفكر الفلسفيّ أن يوضح علاقة الحقيقة المتسامية من جهة باللغة التي يفهمها البشر من جهة أخرى.

ونستطيع في الخلاصة أن نعتبر هذا النصّ مجموعة تأمّلات لاهوتيّة في سرّ الحقيقة والمعنى الخفي لما بعد الحداثة الغربيّة. وموقف قداسته من الفكر الفلسفيّ المعاصر هو عكس موقف كانط (الدين في حدود العقل)، أي إنّه ينتقل من محدوديّة العقل المعاصر إلى الإيمان بلامحدوديّة الكائن الحقيقيّ المطلق.